التطرف بين الدين والسياسة

شهد تاريخ الإسلام والمسيحية واليهودية أنواعاً مختلفة من التطرف والغلو لا تزال آثار بعضها حاضرة بأشكال متنوعة في العديد من البلدان والمجتمعات. ولا ريب في أنّ ظواهر التطرف والغلو بدون استثناء ارتبطت بالسياسة ، وعبرت عن مصالح ومواقف سياسية معينة منذ ظهور الأديان السماوية ، وقد تورط كثير من الحكام والمتنفذين في العالم الاسلامي ، وملوك وأباطرة أوروبا المسيحية وكنائسها في رعاية واستخدام المذاهب المتشددة والحركات والجماعات المتطرفة ، بهدف تحقيق أهداف سياسية ومصالح سلطوية دنيوية في العصور الغابرة والعصر الراهن تحت غطاء الدين ، بهدف إضفاء الشرعية على نظم الحكم وصراع المصالح .

حدث ذلك في القرون الميلادية الأولى والوسطى ، ثمّ تكرر في العصر الحديث سواء في مرحلة ظهور القوميات ونشوء الأمم والدول القومية والوطنية المعاصرة ، أو في مرحلة الصراع على اقتسام الأسواق والنفوذ في المستعمرات ومداخل البحار والمحيطات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وصولاً إلى مرحلة الحرب الباردة خلال القرن العشرين المنصرم ، حيث وظفت المخابرات المركزية الأمريكية ومخابرات دول حلف الناتو كلاً من الأكليروس المتشدد في الكنيسة الأرثوذكسية بشرق أوروبا ، والغوغاء والمتطرفين البوذيين في جبال التبت في الصين، والمنظمات اليهودية في شرق أوروبا وجماعات الإسلام السياسي المتطرفة في العالم العربي والإسلامي، لخوض معارك مباشرة بالنيابة عن الغرب ضد الاتحاد السوفيتي والصين في إطار الحرب الباردة التي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين بين الشرق الاشتراكي والغرب الرأسمالي.

يقيناً أنّ القاسم المشترك بين جميع الأفكار المتطرفة في أوساط أتباع الأديان المختلفة ، هو نزوع أصحابها إلى الإقامة الدائمة في الماضي البعيد ، والقطيعة مع العصر ورفض قواعد العيش الجديدة في الحياة الإنسانية المعاصرة والمتميزة بأبعاد كونية تتناقض مع الأفكار المتطرفة التي تضفي صفة القداسة الدينية المطلقة على نماذج حياة الأسلاف والنظم الامبراطورية القديمة ، وترفعها إلى مقام العقيدة الدينية الخالصة ، وتصر على تلوين حياة الأمم والشعوب والمجتمعات بتلك النماذج الماضوية ، دون أدنى مراعاة لتأثير تطور العلوم والتكنولوجيا والمجتمعات والأفكار والاقتصاد والسياسة ونظم الحكم والإدارة والثقافات والحضارات والعَلاقات الدولية على وعي وحياة الإنسان !!

في هذا السياق لا يجوز إخراج العقل الإنساني ورصيده الحضاري من دائرة المعطيات الحاسمة التي سيتقرر في ضوئها حسم التدافع الدائر بين القوى الفاعلة التي تساهم في صنع الحضارة الحديثة، وتسعى إلى التأثير على وجهة تطورها.. فقد أسهم تطور العلم في إغناء رصيد المنجزات العقلية للبشرية بأسرها ، فيما ساعدت منجزات الثورة التكنولوجية المعاصرة على تكوين أنماط جديدة من التفكير والسلوك إزاء مشكلات البشرية من منظور وحدة المصير الإنساني للبشرية في عالمنا الواقعي الذي يتسم بالترابط والتكامل والتنوع .

الثابت أن صورة العالم شهدت تغيرات واسعة تحت تأثير الدور المتعاظم لمجتمع الدول المتحضرة في ميادين الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية والروابط الاقتصادية والتجارية البنيوية بين مختلف قارات ودول وشعوب العالم ، بالإضافة إلى التأثيرات المتسارعة لمنجزات العلوم التطبيقية وثورة المعلومات الانفجارية . وما من شك في أنّ كل هذه التحولات غيرت أيضاً رؤية الناس مَن مختلف الأديان والثقافات لهذا العالم الجديد.

لقد أصبح العالم اليوم أكثر ترابطاً وتكاملاً وتناقضاً وتنوعاً في آن واحد.. ولأنّه كذلك فإنّ الحوار ـ وليس الصراعَ ـ بينَ الأديان والثقافات والحضارات يُعد ضرورة تمليها حاجة العالم الى السلام القائم على التسامح والتعايش والترابط والتعاون .. وبوسعنا القول إنّ جميع هذه الاحتياجات الملحة لا يمكن بلوغها دون التخلص من نزعات الهيمنة والاستعلاء والاستبداد في العَلاقات الدولية ، وهي نزعات متطرفة بامتياز .. لأنّها تتجاهل الفرق بين العدالة والظلم ، وتخلط بين الحق والباطل، ولا تميز بين الإرهاب والمقاومة المشروعة للاحتلال والعدوان والاستيطان .. الأمر الذي ينذر في نهاية المطاف بمخاطر جدية تهدد حضارتنا الحديثة وعالمنا الواحد من بينها خطر التطرف والإرهاب.

احمد الحبيشي
ahmedalhobishi@yemen.net.ye

تجديد الخطاب الديني

تأسيساً على ما تقدم، لا يختلف اثنان حول حاجة الأمة العربية والاسلامية لصياغة خطاب ديني مستنير، وتقديم صورة مشرقة للإسلام وشريعته ونظامه القيمي والأخلاقي . ومن نافل القول إنّ الخطاب الديني الذي أقصده، لا يعني النص الديني المقدس سواء كان قرآناً كريماً أو حديثاً نبوياً شريفاً .. والمقصود بهذا الخطاب هو أقوال الفقهاء والدُعاة والخطباء وأهل الإفتاء والمفكرين الإسلاميين، حيث يلعب هذا الخطاب دوراً حيوياً في تقديم صورة الإسلام إلى المتلقين من المسلمين وغير المسلمين.

حين يقدِّم الخطاب الديني صورة مشرقة للإسلام، تكون النتيجة صورة مشرقة للتدين على مستوى السلوك الفردي والجمعي، الأمر الذي يؤدي إلى إعلاء مكانة نظام القيم الإسلامي في العَلاقات الإنسانية، سواء بين أفراد المجتمع الإسلامي أو بينه وسائر المجتمعات والأمم والشعوب في العالم الإنساني، وما يترتب على ذلك من توظيف إيجابي للتنوع في المعتقدات والثقافات بين البشر لصالح إعلاء مكانة القيم الانسانية المشتركة ، وحماية حقوق الإنسان ودعم قيم الحرية والعدالة والتعاون والتسامح والسلام بين الشعوب، وهي من أهم مقاصد الدين الإسلامي الذي أنزله الله رحمة بالعالمين.

إنّ أخطر ما يهدد الخطاب الديني– باعتباره أهم مصادر المعرفة بأصول الدين– هو تسلل الهوى والأغراض السياسية والحزبية والمذهبية ، وغياب البصيرة وسطوة الغلو والتعصب، ما يؤدي إلى إيجاد فهم مشوّه للدين، وإنتاج سلوك منحرف من قبل بعض الذين يقعون ضحية للانحرافات والتشوهات في الخطاب الديني .

في هذا السياق تبلورت على أيدي العديد من علماء الدين والمفكرين الاسلاميين المستنيرين توجهات نقدية تجسد نهج الاعتدال في الدعوة والإرشاد ، وأهمها الحرص على نقد ما يسود الخطاب الديني لبعض الدعاة من إصرار على تسييس المساجد وتحويلها إلى محاكم تفتيش تصدر الاتهامات والادانات الجاهزة ، وصولاً الى استخدامها كمنابر لعرض وجهات النظر السياسية وخوض الصراعات الحزبية، وتداول الإشاعات المغرضة وإطلاق حملات الدعاية الانتخابية ، وتكفير وتفسيق الخصوم السياسيين ، والتحريض ضد المثقفين والمفكرين المسلمين من حملة الأقلام والأفكار والآراء المخالفة ، وغير ذلك من الأمور التي تسيء إلى بيوت الله وتمزق صفوف المسلمين!!

ينتقد المستنيرون المسلمون إصرار بعض الدعاة على الدعوة بالترهيب والتخويف بدلاً من الترغيب والتيسير، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يلاحقهم بالإتهامات والإدانات والتحريض والتخويف والوعيد ، وغير ذلك من الأساليب التي تملأ النفوس بالذعر والتوتر، وتحول بينها وبين الهدوء والسكينة.

لا فائدة من خطاب يستهدف إقناع الناس بقبول الدعوة وهم مذعورون وخائفون ومتوترو الأعصاب ، لأنّ الحضارات والأوطان والمجتمعات الحرة والمتقدمة لا تُبنى بعقول وسواعد وأعصاب مذعورة وخائفة ومتوترة.. وما أحوجنا اليوم إلى خطاب كهذا الذي نقرأه في دراسات ومحاضرات و مقالات بعض الفقهاء والمفكرين المستنيرين الذين يدعون الى تجديد الخطاب الديني ، حيث نجد تأكيداً على أهمية التيسير ورفع المشقة والحرج ، وكل ذلك يحمل معنى الرحمة والمغفرة من الله الرحيم الغفور القائل : ((ولا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً)) .. وبالقدر ذاته ما أحوجنا إلى خطاب لا يُغالي في التشدد والتضييق واختيار أعسر الأمور وأجلبها للمشقة وادعاها إلى وقوع الحرج في ظل وجود البدائل التي تيسر ولا تعسر.. ((يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)) صدق الله العظيم.

لا يغفل هؤلاء المستنيرون مقاصد الدين ولا يميلون إلى الأخذ بظاهر النصوص . وبوسع من يتابع الداعين الى تجديد الخطاب الديني أن يلاحظ تأكيدهم على ضرورة الاجتهاد في التجديد واستخدام العقل ـ بدلا من النقل ـ في فهم النصوص وتفسيرها، واستنباط الأساليب الواقعية لتطبيقها في الظروف المتجددة والأوضاع المتغيرة.. فحين تنفصل الأحكام عن غاياتها والتكاليف الشرعية عن مقاصدها يقع الناس في العسر والحرج ، ويدخلون في دوائر الأزمات والمعضلات.

استرعى انتباهي في بعض كتابات الداعين الى تجديد الخطاب الديني تمسكهم بنقد بعض الأفكار الخاطئة التي تحاول حصر الإسلام في عصور معينة من ماضي التاريخ، وما ينجم عن ذلك من تصور خاطئ أنّ الإسلام هو تاريخ تلك الحقبة فقط .. ولذلك يؤكد هؤلاء بأنّ الإسلام هو دين الله حتى تقوم الساعة.. أما الماضي فهو ليس من صنعنا، وأمجاده لا فضل لنا فيها . ناهيك عن أنّه يشتمل على الحق والباطل، والهدى والضلال ، والعدل والظلم . فيما يؤدي الاستغراق في الماضي إلى انشغالنا عن الاهتمام بالحاضر والمستقبل، في عالم تتطور فيه العلوم والمعارف والمنجزات التقنية بإيقاع متسارع لم يعرفه أسلافنا الأقدمون.

يرفض الداعون الى تجديد الخطاب الديني إفراط بعض الدعاة المتطرفين في التفسيق والتكفير. ولا يتفقون مع الأفكار المتطرفة التي تزعم بأنّ الإسلام يحث المسلمين على قتال كل من لا يدين بدينهم، وتقدم تعريفاً مشوهاً للثقافة الإسلامية على نحو لا يسمح بوجود مجال للاختلاف والتعايش مع غير المسلمين في عالم تسوده قيم الحوار والتفاعل والتعاون والسلام.. كما يرى الداعون الى تجديد الخطاب الديني أنّ ثمة مجالاً للاختلاف في الرأي والفكر بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وغيرهم من أهل الديانات السماوية والمعتقدات الأخرى . فالمسلم ليس وصياً على مسلم آخر عاقل، أما غير المسلمين فيجب مجادلتهم بالتي هي أحسن ، والبر بهم والقسط إليهم والعيش معهم بسلام .. فلا إكراه في الدين، ولا مندوحة لقتال غير المسلمين إلا دفاعاً عن النفس أو الأرض أو المال أو العرض أو لدرء خطر عدوان بائن على ديار المسلمين . والله من وراء القصد .

□ عن / صحيفة (26 سبتمبر)

> لايجوز تسييس المساجد وتحويلها إلى محاكم تفتيش تبدا بإصدار الاتهامات والإدانات الجاهزة، مروراً باستخدامها كمنابر لعرض وجهات النظر السياسية وخوض الصراعات الحزبية والمذهبية الضيقة، وتداول الإشاعات المغرضة وإطلاق حملات الدعاية الانتخابية، وانتهاءً بتكفير وتفسيق الخصوم السياسيين ، والتحريض ضد المثقفين والمفكرين المسلمين من حملة الأفكار والآراء المخالفة ، وغيرذلك من الأمور التي تسيء إلى بيوت الله وتمزق صفوف المسلمين!!

> ظواهر التطرف والغلو- بدون استثناء -ارتبطت بالسياسة ، وعبرت عن مصالح ومواقف سياسية معينة منذ ظهور الأديان السماوية ، وقد تورط كثير من الحكام والمتنفذين في العالم الإسلامي ، وملوك وأباطرة أوروبا المسيحية وكنائسها ، في رعاية واستخدام المذاهب المتشددة والحركات والجماعات المتطرفة ، بهدف تحقيق أهداف سياسية ومصالح سلطوية دنيوية في العصور الغابرة والعصر الراهن تحت غطاء الدين ، بهدف إضفاء الشرعية على نظم الحكم وصراع المصالح .

> الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يلاحقهم بالاتهامات والإدانات والتحريض والتخويف والوعيد وغير ذلك من الأساليب التي تملأ النفوس بالذعر والتوتر، وتحول بينها وبين الهدوء والسكينة.
>
> فلا فائدة من خطاب يستهدف إقناع الناس بقبول الدعوة وهم مذعورون وخائفون ومتوترو الأعصاب ، لأنّ الحضارات والأوطان والمجتمعات الحرة والمتقدمة لا تُبنى بعقول وسواعد وأعصاب مذعورة وخائفة ومتوترة.

كلنا بنازير بوتو!

هاشم صالح □

عندما سمعت خبر اغتيال بنازير بوتو، حاولت ألا أصدقه في البداية، أو بالأحرى «فزعت فيه بآمالي الى الكذب»، كما قال المتنبي في قصيدته الشهيرة عن أخت سيف الدولة. ولكن وأمام تواتر الأنباء، كان لا بد من مواجهة الحقيقة المرة: لقد سقطت فعلا تلك المرأة ذات الاطلالة الرائعة والايشارب المزركش الجميل. لقد اغتيلت تلك المرأة ذات الابتسامة الجذابة والشخصية الآسرة. وكانت أول امرأة مسلمة تصل الى قيادة واحد من أهم بلدان العالم الاسلامي وأشدها خطورة في وقتنا الحاضر. لقد اغتيلت تلك المرأة المسلمة المنيرة والمستنيرة التي كانت تشق الدرب نحو تحرير العالم الاسلامي وإدخاله في الحداثة من دون ان تتخلى عن أجمل ما فيه: روحانيته الصافية وقيمه التنزيهية والأخلاقية العليا. وكثيرا ما كانت تدعو نفسها أمام الغربيين بأنها: بنت الشرق. وقد كانت.

هل ربح القتلة يا ترى؟ ظاهريا، نعم. على المدى القصير، نعم. ولكن جريمة اغتيالها سوف تجعل منها أسطورة، وسوف تلهب حماسة الجماهير لها وتزيد من تعلقها بأفكارها أكثر فأكثر. ذلك ان بنازير بوتو كانت لديها أفكار. وربما اطلعنا عليها بشكل أعمق وأكمل عندما سيصدر كتابها عن دار نشر نيويوركية تحت عنوان: المصالحة: الاسلام، والديمقراطية، والغرب. وهذا هو برنامج كل التحديثيين المسلمين والعرب. انه يتلخص بكلمة واحدة: كيف يمكن ان نصالح بين الاسلام والحداثة؟ أي: كيف يمكن ان نصالح بين القيم الروحانية والأخلاقية العليا للاسلام من جهة، والقيم العلمية والفلسفية والإنسانية للحضارة الغربية من جهة أخرى؟ هذا هو هدفنا جميعا، هذا هو حلمنا. ولذلك فإن في مقتلها شيئا من مقتلنا، شيء منا ذهب، سقط، مع سقوط تلك المرأة الرائعة مضرجة بدمائها.

لقد ربح القتلة مؤقتا يا سيدتي، واستطاعوا ان يخطفوا رسالة الاسلام. ولكن ذلك لن يدوم. سوف تنتصر قوى التقدم والنزعة الانسانية والقراءة المستنيرة لرسالة الاسلام على القوى الظلامية المتزمتة التي تفتك الآن بباكستان، وغيرها، فتكا ذريعاً. وبالتالي فالصراع المفتوح على مصراعيه هو بين قراءة قديمة وقراءة جديدة، قراءة صحيحة لجوهر الاسلام وقراءة خاطئة مشوهة تؤدي مباشرة الى الاجرام.

وبنازير بوتو هي ضحية موجة التطرف العارمة التي تكتسح العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه. معظم قادة الفكر والسياسة والثقافة في العالم العربي، ومن ورائه العالم الاسلامي كله، مهددون الآن بنفس المصير الذي لقيته بنازير بوتو.

وسوف يسقط المئات والآلاف وعشرات الآلاف منهم قبل ان تسطع شمس الحرية على عالمنا الاسلامي المعذب. ولكنها سوف تسطع يوما ما وتختفي خفافيش الظلام. ومن اجل هذا الهدف النبيل والعظيم، تهون كل التضحيات. لا يمكن أن نفهم استشهاد هذه المرأة الشابة الواعدة، لا يمكن ان نقبل سقوطها مضرجة بالدم، الا اذا وضعناه ضمن هذا السياق التاريخي الطويل العريض. لقد سقطت بالنيابة عنا جميعا، وأصبحت منارة للحرية، ولم تذهب دماؤها سدى.

على هذا النحو أفهم التضحيات الجسام التي تحصل في العالم العربي والإسلامي اليوم. لن نصل الى التحرير الداخلي الا بعد دفع الثمن الباهظ. ويخطئ من يظن ان التحرير الداخلي أسهل من التحرير الخارجي، أي من الاستعمار. على العكس انه أشد وأدهى، لأنك عندئذ تدخل في صراع مع نفسك، مع أهلك وبني دينك وجنسك.. عندئذ تدخل في صراع مع الذين اختطفوا الاسلام، فأصبح في يدهم رهينة كما قالت بنازير بوتو، وكما يقول كل المثقفين المستنيرين في مشرق العالم الاسلامي ومغربه. هذا الصراع ما عاد بالامكان تحاشيه أو تلافيه. لقد اصبح أكبر معطى جيوستراتيجي يشغل العالم كله حاليا. والسؤال هو: هل سنستطيع تخليص الاسلام من قبضة اولئك الذين اتخذوه رهينة؟ ومتى؟ ربما كانت خطيئة بنازير هي انها ككل القادة السياسيين كانت تعتقد بامكانية حرق المراحل وتغيير المعطيات وتحقيق الديمقراطية بضربة عصا سحرية. لا أقصد بذلك هنا النيل منها بعد ان سقطت شهيدة النور والحقيقة. وإنما أقصد بأن الشعوب الاسلامية، عربية كانت أم غير عربية، لا يمكن ان تصل الى الحرية والديمقراطية والتسامح الديني إلا بعد ان تخوض تجارب هائلة ومخاضات مرعبة.

إذاً اقول هذا الكلام لا يعني اني اتجاهل مسؤولية الغرب عن تدهور الأمور في باكستان وسواها من البلدان الاسلامية والعربية. فالسياسة الحمقاء التي يتبناها والتي تقضي بمحاربة الارهاب الديني من دون محاربة أسبابه التي تنميه وتغذيه هي المسؤولة عن الفشل الذريع الذي وصلنا اليه حاليا. وهي المسؤولة ايضا عن مصرع بنازير بوتو أو استشهادها البطولي. فلنختتم بما قاله محمد البرادعي، ذلك الحكيم المصري والعربي الكبير لجريدة «الباري ماتش» الفرنسية اخيرا: لا أحد يولد كاميكاز. الانسان يصبح ارهابيا لأنه لم يعد لديه شيء لكي يخسره، أو لأنه يشعر بأنه أهين في كرامته الانسانية وعمق أعماقه. فمتى سيفهم الغرب ان الجوع كافر، وان بطر شعوبه المترفة يحصل على حساب الشعوب الأخرى ويستفزها؟

□ كاتب سوري

التخلف العربي . . . ليس وراثياً!

محمد السماك □

نقلت وكالة "رويترز" نبأ قالت فيه إن ألمانيا "تسعى إلى تنشئة جيل جديد من العلماء من أمثال آينشتاين لاستعادة أمجاد علمية جاءت بها إلى العالم مثل عقار الأسبرين". إن قصة عقار الأسبرين لم تبدأ في ألمانيا، ولكنها انتهت في ألمانيا. إنها قصة التواصل الحضاري الذي لا يميّز بين شعب وآخر، ولا يقف أمام حدود دول وقارات. ففي المشرق العربي بعثت الحضارة اليونانية من مرقدها بعد أن دفنت في غياهب النسيان والجهل في أوروبا. وكان الخلفاء العباسيون يدفعون ثمن الكتاب المترجم ما يعادل وزنه ذهباً. وكان أحد أهم هذه الكتب للعالم اليوناني إيبوغرات "إبوقراط". فقد ذكر في كتاب طبي وضعه في عام 400 قبل الميلاد، أن مضغ أوراق شجرة الصفصاف يخفف الشعور بالألم. وبعد أن جرب اكتشافه على نفسه، سجل ذلك في كتابه. وصل هذا الكتاب إلى العرب. وكان واحداً من الكتب التي ترجمت إلى العربية. توقف العالم العربي أبو الحسن الطبري أمام النص الذي يتعلق بأوراق شجرة الصَفصاف. فوجد أن الشجرة معروفة ومنتشرة جداً. وأثبتت التجارب التي أجراها بنفسه وعلى نفسه صحة ما سجّله إيبوغرات.

بعد ذلك أضاف علماء مسلمون آخرون أمثال الرازي وابن سينا وابن رشد دراسات أكثر تفصيلاً حول هذا الموضوع، ونشروا نتائج دراساتهم في كتبهم الطبية التي كانت متداولة على نطاق واسع في جامعات قرطبة والزهراء وإشبيلية بالأندلس. ومن هناك انتقلت هذه الكتب العربية في القرن الثاني عشر إلى الجامعات الأوروبية. وكانت أساس الدراسات الطبية في بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. في عام 1763 اكتشف عالم بريطاني هو القس لستون أن أوراق شجرة الصفصاف لا تخفف الألم فقط، ولكنها تشفي مَن ارتفاع الحرارة أيضاً. وفي عام 1853 أرسى العالم الفرنسي شارل غيرهارد القاعدة الكيمائية الأولى لإنتاج علاج مستخرج من أوراق هذه الشجرة. وفي عام 1897 عمل العالم الألماني فيليكس هوفمان على إنتاج "حبة" مستخرجة من أوراق شجرة الصفصاف، لمعالجة الألم والحمى معاً، فكانت حبة الأسبرين. هذه الحبة التي ينتج منها سنوياً حوالي 50 ألف طن، والتي تستخدم للوقاية من تخثر الدم وسرطان القولون أيضاً.

ومن خلال سلّم التبادل المعرفي استطاع العلم أن يرتفع إلى المستوى الذي مكّنه من التوصل إلى الكشف عن أحد أسرار الطبيعة في توفير الدواء للإنسان. وهذا ما يطلق عليه الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي "السيمفونية البشرية". طبعاً لم تنطلق مسيرة "حبة الأسبرين" من فراغ. لقد انطلقت من بؤرة حضارية أصيلة إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في العصر الحاضر. "تصوّروا مدينة نيويورك اليوم بكل ما فيها من مبان وساحات ومن صروح عمرانية حديثة. وتصوّروا قرية صغيرة من قرى ريف المكسيك المحرومة من الكهرباء ومياه الشفة والمجاري الصحية. إن المقارنة بين الصورتين تعطي فكرة عن المقارنة بين مدينة الزهراء الأندلسية وأي مدينة أوروبية معاصرة لها مثل لندن وباريس وروما. فالزهراء كانت في القرن العاشر مثل نيويورك اليوم. وكانت تلك المدن الأوروبية مثل قرى الريف المكسيكي"!!. هذا الكلام هو لعالم الآثار الإسباني أنطونيو فاليجو المسؤول عن عملية كشف المعالم التاريخية للمدينة الإسلامية التي شيدها المسلمون في القرن العاشر بالقرب من مدينة قرطبة عاصمة المملكة الأندلسية في ذلك الوقت. كانت المدن الأندلسية جميعها مضاءة الشوارع، وكانت المياه الصالحة للشرب تصل إلى كل بيت. وكانت هناك مجار صحية. وكانت الطرق مرصوفة بالحجارة. والأرصفة مغروسة بأشجار البرتقال. وكانت الزهراء درّة المدن الأندلسية جميعها.

كان يوجد في العاصمة قرطبة وحدها سبعون مكتبة عامة في الوقت الذي كان الكتاب تحفة نادرة في معظم مدن أوروبا. وكانت كبرى المكتبات تحتوي على 400 ألف كتاب علمي في الرياضيات وعلم الفضاء والطب والفلسفة والأدب. بعضها لعلماء عرب وبعضها الآخر مترجم إلى العربية عن اليونانية. ولكن في إطار التنافس العربي– العربي حول أيهما تكون عاصمة الخلافة قرطبة أم بغداد، أنشأ الخليفة عبدالله الثالث في عام 940م مدينة الزهراء على مسافة قصيرة (5 كيلومترات) من قرطبة لتكون في تخطيطها وفي عمارتها وفي بيوتات العلم فيها مركز إشعاع علمي وحضاري. وكان سقوطها بداية لسقوط الحضارة الإسلامية الأندلسية التي استمرت 800 عام وانتهت بسقوط غرناطة في عام 1492. ظلت مدينة الزهراء مطمورة حتى اكتشفت بعض آثارها في عام 1911. ولكن حتى الآن لا يزال 90 في المئة منها تحت الأنقاض. ويعتقد علماء الآثار أن مجموعة من البنايات الحديثة قامت فوق أجزاء واسعة من هذه المدينة التاريخية والنادرة التي يشبهونها بمدينة فرساي في العهد الذهبي للملكية الفرنسية. بعد سقوط غرناطة هاجر من نجا من العلماء المسلمين إلى شمال أفريقيا والمشرق العربي. وترافقت هجرتهم مع قيام منارات علمية حضارية في هذه المناطق. كانت تمبكتو –في مالي اليوم– واحدة من تلك المنارات. فقد عُثر مؤخراً في كهوف تطمرها الرمال وفي بقايا بيوت مصنوعة من الطمي والوحل، على حوالي نصف مليون كتاب ومخطوط يعود تاريخ بعضها إلى أكثر من ألف عام. وكلها باللغة العربية!!. وتتناول هذه الكتب إلى جانب الشؤون الدينية، مختلف أنواع علوم الحساب والفلك والطب والفلسفة والشعر والأدب. لقد ترجم المثقفون العرب الآثار الفكرية والأدبية والعلمية للعلماء الأفارقة التي كتبوها بلغاتهم المحلية، وحفظوا بذلك التراث الأفريقي– كما فعلوا مع التراث اليوناني. ولكن الموجات الاستعمارية التي توالت على أفريقيا أدت إلى تدمير هذا التراث، وإلى طمر ما بقي منه تحت الرمال.

لقد بلغ الازدهار العلمي في تمبكتو أوجه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وفي ذلك الوقت كان عدد سكان المدينة يزيد على مئة ألف، أي أكبر من معظم الحواضر الأوروبية في ذلك الوقت. وكانت تشكل جسر تواصل واتصال بين شمال أفريقيا وجنوبها، وبين شرقها وغربها. ويذكر المؤرخون أنه عندما تعرضت تمبكتو في أواخر القرن السادس عشر إلى اجتياح عسكري مغربي، حاول علماؤها رد الاجتياح بالتي هي أحسن (بالسياسة). فاجتمعوا إلى قائد الجيش المغربي وقالوا له: لا يوجد في القرآن الكريم أي نصّ يسمح لقوات إسلامية باجتياح مجتمع مسلم والهيمنة عليه بالقوة. ربما قالوا ذلك عن ضعف، ولكن من الثابت أن الثقافة الإسلامية في تمبكتو كانت في ذلك الوقت ثقافة اعتدال وانفتاح وسماحة، وهو ما تؤكده المخطوطات الكثيرة التي تم العثور عليها، ومن بينها مخطوطات يهودية.

فقد اتخذ اليهود من تمبكتو –كما اتخذوا من الحواضر الإسلامية العديدة الأخرى (غرناطة، دمشق، بغداد، القاهرة، اسطنبول)– واحات آمنة لهم، حتى أنهم أقاموا فيها كنيساً ظل قائماً حتى القرن التاسع عشر، وقد أزال معالمه المستعمرون الأوروبيون، في ذروة موجة اللاسامية التي كانت تعصف في ذلك الوقت بالمجتمعات الأوروبية المختلفة.

من أنتج عقلاً مثل ابن سينا أو الخوارزمي يستطيع أن يعيد إنتاجه أيضاً. المهم أن تتوفر الإرادة، والإمكانات، فلا الإبداع وراثي ولا التخلف.

ومن هنا، فإن الحضارة ليست تصارعاً بل هي تلاقح وتكامل معرفي يدفع بالإنسانية كلها قدماً إلى الأمام. إنها نسيج مصنوع من خيوط متنوعة، هي خيوط الثقافات المتعددة في العالم كله. أما "الإلغائية" التي تدعو إلى الصدام الحضاري وتفلسفه، فهي مجرد تعبير عن غطرسة استعدائية لعبت في السابق، كما تلعب اليوم، دوراً تشويهياً وتعطيلياً لمسيرة الحضارة الإنسانية. غير أن المشكلة لا تقف هنا. فألمانيا مثلاً التي قررت الاهتمام بإعادة إنتاج عقول مبدعة أمثال آينشتاين لتقديم أمجاد علمية إلى العالم مثل عقار الأسبرين، تقدم درساً إلى العالم العربي (والإسلامي) الذي يتخلف عن ركب الحضارة بسبب عدم اهتمامه بهذه العقول، وبسبب عدم إنفاقه على البحث العلمي، خلافاً لما كان عليه الأمر في السابق. إن من أنتج عقلاً مثل آينشتاين. يستطيع أن يعيد إنتاجه مرة جديدة. ومن أنتج عقلاً مثل ابن سينا أو الخوارزمي يستطيع أن يعيد إنتاجه أيضاً. المهم أن تتوفر الإرادة. والإمكانات. فلا الإبداع وراثي ولا التخلف.

□ كاتب لبناني

أخي المواطن..
أختي المواطنة:
لنتمسك ببيئة نظيفة خالية من التلوث